مح رقم 04

السياسة العسكرية الخاصة بالعمارة الدفاعية بشمال إفريقيا

ترتكز السياسة العسكرية بالضرورة على أجهزة تخدم منظورها الرامي إلى تطويق كل المناطق التابعة سياسيا لنظامها. و جاءت بالفعل، هذه العمارة استجابة لتخطيطات و استراتجيات اعتمدت عليها كل التوجهات الأمنية و الدفاعية و التي من خلالها تم الحفاظ على هذا الموطن، و إبقاء الثقافة الرومانية فيه. وخضعت هذه السياسة على مقاييس أرتكز عليها النظام الدفاعي.

مراحل السياسة العسكرية :

تحقق المشروع الهادف إلى تطويق المناطق الخاضعة للسلطة البيزنطية بعد فترات متتالية وذلك بإقامة منشآت دفاعية تبناها الآباطرة.

بدأت عملية البناء والتشييد على يد البطريق صولومون واختلف الباحثون حول تاريخ الإنطلاقة الفعلية لهذا الانجاز، كون بروكوب لم يذكر بالتدقيق أي عهدة لصولومون، الأولى أو الثانية ، تم فيها الشروع في البناء . واعتمادا على الكتابات التي درست من طرف دورليا، فينص هذا الأخير أن جملة المنشآت العسكرية تمت خلال العهدة الثانية لصولومون (539-544) خاصة وأنه استرجع الأمن والاستقرار في شمال إفريقيا لمدة من الزمن بعد إنتصاره على المور خلال الحملة الثانية على الأوراس.

هذه الفرضية لم تؤيد من طرف برينجل الذي يشاطر رأي ديهل القائل أن مرحلة تشييد المعالم الدفاعية بدأت منذ الوهلة الأولى أي في سنة 534 واستمرت إلى غاية 544 .

ومهما كان من أمر، فمهمة إحاطة المغرب القديم بسلسلة من المباني جاءت على مراحل أستجابت مع الواقع الأمني وتماشت مع فترات توسيع الهيمنة البيزنطية فكان لإسترجاع الأقطار التي كانت خاضعة للسلطلة الوندالية تبعها حتما تجسيد مخطط قائم على حراسة المنطقة بواسطة حزام من القلاع.

1- فترة الأمبراطور جوستينيانوس :

هي من أهم الفترات، لأن أغلب المنشآت العسكرية ترجع إلى فترة حكم هذا الأمبراطور. وكانت مهمة صولومون جبارة لما تقتضيه المهمة من مواجهة أخطار المور الثائرين وإعمار وبناء على إطار واسع هيئات تؤمن وتدافع على المجد المسترجع.

يذكر إفاقريوس أن جوستينيانوس أعاد بناء مئة وخمسون مدينة بشمال إفريقيا، فرمم البعض منها وأعاد إحياء البعض الآخر من أنقاضها. ويذكر كذلك أنه جهزها بالمعالم العمومية والخاصة وسيجها بأسوار منيعة.

ينص بروكوب أن عملية البناء في فترة جوستينيانوس مست 28 مدينة وسبع قلاع. وإن بالغ إفاقريوس في عدد المباني العسكرية البيزنطية غير أن بروكوب تجاهل حصر كل إنجازات هذه الفترة، ذلك أن الكتابات والمخلفات الأثرية أثبتت أن السياسة التحصينية شملت كل المقاطعات البيزنطية. واقترح دوفال أن عدد المنشآت وصل إلى خمسين، فإعتمادا على دراسة الكتابات الخاصة بالعمارة الدفاعية والتي أقيمت من طرف دورليا وكذلك القوائم التي تم حصرها من طرف الباحث برينجل في أطروحاته ومعتمدا على مصادر أدبية وكتابات لاتينية وإغريقية وشواهد معمارية، يمكن حصرها فيما يلي :

- فترة خلفاء جوستينيانوس :

تميزت فترة الآباطرة الذين استخلفوا جوستينيانوس بعد وفاته سنة 565 بمراحل من الاضطرابات والفوضى، وواجه جوستينوس الثاني (565-578) أخطارا توالت من الحدود الشرقية والشمالية للأمبراطورية البيزنطية. كما أن سياسة جوستينيانوس في إنشاء عمارة متعددة من مبان فخمة وعمومية وعسكرية والتكفل من جهة على تجهيز جيش كبير، ومن جهة أخرى شراء السلم بإبرام معاهدات، كلف ذلك لخزينة الأمبراطورية تكاليف باهظة. فوجد جوستينوس الثاني نفسه أمام وضعية حرجة أجبرته على خفض النفقات المالية المخصصة للمنشآت العسكرية. وأحكم في تعيين الوالي طوماس كحاكم على شمال إفريقيا الذي وفق في تهدئة عداوة المور بكسب ثقتهم وعزز الخطوط الدفاعية بمنشآت جديدة

وتواصلت جهود السلطة البيزنطية في تعزيز المواقع الدفاعية وحاول الأمبراطور تيبيريوس الثاني (582-578) من فرض الهدنة مستعينا بالدبلوماسية وبتعيين غيناديوس حاكما عسكريا وأسندت لتوماس المهام الإدارية والتفاوض مع أمراء المور.

الأسس العامة للعمارة الدفاعية:

اعتمدت العمارة العسكرية على أسس ثابتة في تصميمها، و قد أوضح بروكوب تفاصيل و مزاياالعمارة الدفاعية التي كانت سائدة في فترة حكم الإمبراطور جوستينيانوس.تعددت هذه العمارة في كل مناطق الإمبراطورية البيزنطية و جاءت تلبية لأوضاع اتسمت بها الفترة البيزنطية. إن الدور الأول لهذه العمارة يتمحور في تجهيز قاعدة تكون في آن واحد منطلقا للحملات الحربية ثم توظيفها كملجأ يحتمي فيه الجند و السكان القاطنين في المنطقة عند الضرورة.لا تختلف العمارة التحصينية البيزنطية بالعمارة القديمة التي كانت موجودة بالمشرق. فكانت تعارض للعدو أربعة خطوط دفاعية تتكون من خندق عميق و عريض، يليه حاجز متكون من جدار عال و مسنن، ثم سور ثان سميك، يحتوي على أبراج متوسطة الحجم. و يختم هذه الحواجز السور المحصن الذي يبلغ متوسط علوه عشرة أمتار، و قد يصل في بعض المباني إلى عشرين مترا.تبنى الأسوار المحصنة بعناية، تخصص له الحجارة

الكبيرة الصلبة. أسوارها مسننة و يعبرها ممشى الحراسة. يتوسط السور من كل جهاته أبراج دائرية أو مربعة الشكل تعلوا كل الأسوار. فكل سور يعلو الآخر حتى يستطيع الجند إطلاق القذائف دون تعرض لخطر الجند الآخرين الموجودين في الأسوار الأمامية.

كما يكمن إقامة حاجز آخر في مقدمة المبنى و المتكون من الركام المستخرج من الخندق و يتحصل بذلك على خمسة خطوط دفاعية يمكن توضيحها من خلال المقطع التالي (أنظر الشكل).

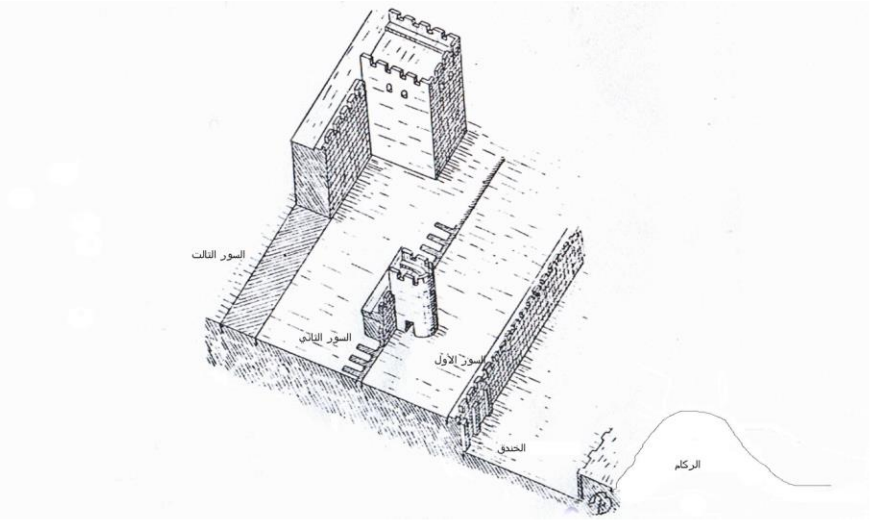

الخطوط الدفاعية المطبقة في العمارة العسكرية

يتكون السور المحصن من طابقين: الطابق الأرضي به كوات الرمي يقذف من خلالها النبالون سهامهم على العدو. يحتوي الطابق العلوي على ممشى الحراسة مغطى بقبو، يمكن من خلاله الجند أن يسيروا على كل طور السور. يعلو هذا الطابق السطح ذو سور مزود بشرفات يصل بين مختلف الأبراج و هي ذات ثلاثة طوابق تشرف على كل الحصن. هيئت بعض الأبراج لتكون كمعقل أخير في حالة ما أطاح العدو بالقلعة، فالبرج في حدَ ذاته محصن ليكون آخر مكان للمقاومة.شكل الحيز الموجود بين السور الأول و السور الثاني المكان الذي يحتمي فيه السكان عند الضرورة و منه كذلك يشاركون على حماية الموقع و يبقى الخندق المحفور على كل محيط المبنى الدفاعي حاجزا منيعا ذلك أن عرضه يصل إلى 18 مترا و عمقه يفوق مستوى أساس المبنى، و هو ما يسمح بملئه بالماء.لا بد أن يبنى السور من صفين من الحجارة الكبيرة، يملأ الفراغ بينهما بالدبش، و هو عال حتى لا يتسلق العدو إلى داخل القلعة، و سميك ليرد القذائف حتى لا يحدث فجوات و فتحات يتوغل منها العدو و لذلك تحظى الجهة السفلى للسور بعناية كبيرة و يختار لها الحجارة الكبيرة المربعة الزوايا، ترصف كما ذكر أعلاه على صفين يتخللهما عبر مسافة صغيرة حجارة كبيرة توضع في سمك الجدار لتساهم في صلابة السور المحصن. ويوصي المشرع بأن يكون ارتفاع الطابق الأرضي بمقدار سبعة أذرع، ما يعادل 2,31 م

استعمل القبو في العمارة الدفاعية و هي لا تعتمد على دعامات خشبية و تحمل هذه الأقبية الطوابق العلوية، و ترسم في مخططها العقد على شكل مهد أو عقد متقاطع، و توضع أرضية الطابق على عارضات من الحجارة تحمل بلاطات الأرضية .

يستحن عدم الإكثار من الأبواب حتى تسهل عملية مراقبة الحركات السكانية و كذلك ليتفادى من استغلال تلك الفجوات من طرف العدو. على هذا الأساس تختلف المداخل باختلاف نوع المبنى العسكري، إذ تحتوي غالبا الحصون على مدخل واحد بينما تتعدد في المراكز العسكرية و المدن المحصنة. و نظرا أن المنفذ نقطة حساسة في العمارة العسكرية، كرست له عناية خاصة، فيكون غالبا بالقرب من برج المراقبة أو يتوسط برجين للمراقبة أو يكون مبنى في هيئة البرج نفسه

تتقدم السور الدفاعي أبراج يستحسن أن تكون متقاربة ببعضها البعض حتى تغطي كل شبر من المعسكر. و تنوعت أشكالها، و يوصي المشرع بأن يكون شكلها الخارجي مسدس الأضلاع، بينما يكون دائريا في شكلها الداخليلكن ما نلاحظه هو تنوع في الأنماط و يتغلب عليها الأشكال الدائرية و المربعة، مع الإشارة أن الأبراج القائمة في الزوايا للمباني العسكرية تكون ذات أحجام كبيرة مقارنة مع تلك الموجودة على طول السور. للبرج باب ضيق على مستوى الطابق الأرضي ، من خلاله يمكن الإلتحاق بالطوابق العلوية. و حرصا على جعل من الأبراج آخر معقل للحصن، يعزل البرج عن الملاحق الأخرى و يجهز بباب سري يضمن حصانته. فإن سقط الحصن في أيدي الغزاة يمكن للجند المتمركزين في الأبراج الإستمرار في المقاومة.

توظف العوامل الطبيعية في تموقع المنشآت العسكرية، فيختار لها الأماكن الإستراتجية تخدم مناعتها، و لذلك فالحماية الطبيعية هي من أحسن وسائل الدفاع. فالأماكن المرتفعة تضمن السيطرة و تراقب حركات العدو من بعيد دون تعرض الجند إلى الخطر مباشرة.إنه

من الضروريات أن يكون الماء متوفرا بداخل القلعة، سواء بوجود منبع مائي، أو جلبها بواسطة ناقلات المياه، أو التقاطها من الواد أو النهر كما يجهز الحصن بصهاريج لالتقاط مياه الأمطار.

II. أسس العمارة العسكرية البيزنطية المطبقة بشمال إفريقيا:

اختلفت أنماط العمارة الدفاعية بشمال إفريقيا، و كان الاختلاف من حيث الشكل و المضمون، و يبقى الشيء المراد منها هو توفير حيز يقيم فيه الجند أو يحتمي فيه المواطنون عند الضرورة.أول شيء يلاحظ في هذه العمارة هو أنها نشأت بصفة استعجالية، مما يوحي على حد تعبير الأستاذ شنيتي:"أن الظروف التي أنجزت فيها تطلبت سباقا مع الزمن قصد الاحتماء بالأسوار و القلاع قبل أن يستجمع الأعداء قوتهم و ينظموا صفوفهم على مهاجمة الجيش البيزنطي في مواقع مكشوفة."و بدأت عملية التشييد لهذه المباني العسكرية منذ أن وضع بليزار قدميه و جيشه على أرض المغرب القديم. ثم سارع صولومون في نشرها في كل المناطق التي تم استرجاعها في عهدتيه. من الأكيد أنه - لضيق الوقت –لم يكن باستطاعة البنائين البيزنطيين احترام كل الأسس و الثوابت التي شرعت في العمارة العسكرية، كما أنه لم يكن باستطاعة الجيش البيزنطي الاستقرار بداخل الأسوار للمدن الرومانية لأنها هدمت في غالبيتها من طرف الملك الوندالي جنسريق.

فكان عليه أن يبتكر عمارة تتوافق مع احتياجاته و أن يوفقها بالمكان الذي يملي عليه بعض الأوضاع قد تكون مختلفة عما عليه في أماكن أخرى من الإمبراطورية البيزنطية.أول شيء يذكر في هذا الجانب هو لا يمكن على الإطلاق تعمير البلاد بالجنود، فشساعة هذه المناطق

تستلزم نفوذا كبيرا حتى تأمنها على أمثل الأوجه. لكن في حقيقة الأمر فإن الجيش البيزنطي المتمركز بشمال إفريقيا لن يستطيع تطويق كل البلاد و لو استعمل كل إدارته، فالقادة السامون و الإمبراطور في مقدمتهم على دراية بهذا الوضع، لذلك لا بد من إيجاد حلول مناسبة و تخطيطات دقيقة تتوافق مع هذه الأوضاع. و من هذا المنظور تم إدراج عمارة عبر كل النقاط الحساسة و نظمها القادة العسكريون، و وزعها في الحيز الإفريقي انتشارا محكما، بحيث جاءت من خلال خطوط دفاعية و سخرت عمارة متنوعة البعض منها قريبة من المدن الرومانية القديمة، و البعض الآخر احتلت جزءا منها، و لأنها استعجالية فقد بنيت على الأسس التالية:

لما أدرك جوستينيانوس أن عدد الجند غير كاف لاحتلال فضاءات كبيرة، ألح على بليزار بأن يقلص من حجم الأماكن أو يبني حصونا تتوافق مع الجند الذي هو تحت تصرفه حتى يمكن لهم من السيطرة على كل المواضع. و لهذا الغرض عندما استلزم الموقف الاستقرار في إطار المدن القديمة، قلص من حجم هذه الأخيرة و اكتفى الجند البيزنطيون ببناء قلعة على أنقاض المستوطنات الرومانية.اتضح لنا من خلال المعاينة الميدانية أن اختيار الموقع التي احتضنت المنشآت التحصينية لم يتم عن طريق الصدفة، و إنما اختير لها أماكن إستراتيجية تمكنها من التحكم في الوضع العسكري. لجأ المخططون العسكريون إلى استعمال الطبوغرافيا في البحث عن المواقع التي توفر حماية طبيعية كافية حتى يكتفون بقلة من الجند في حراسة المعابر و الفجوج و الطرق الرئيسية. و تم الاعتماد على الواجهة البحرية في المواقع الموجودة على الشريط الساحلي كحاجز طبيعي (أنظر المخطط رقم 8)،

و اختير لهم أماكن مرتفعة على مستوى سطح البحر حتى يمكن لقائد الحصن أن يوزع جنده على ثلاث جهات بدلا من أربع.مثل المدينة المحصنة لتامنتفوست .

خصصت المرتفعات من السهول لإقامة القلع الصغيرة و الحصون لكي تسيطر على نطاق واسع على المنطقة التي تشرف عليها. فعلى غرار الجانب الإستراتيجي فهي توفر من بعض جوانبها المنيعة طبيعيا الاقتصاد في الجهد و المال بالامتناع من بناء الأسوار الدفاعية، فالمنحدر العميق يجعلها بعيدة عن أي خطر من هذه الجهة مثل موقع ثاورة

و لم توفر العمارة البيزنطية بشمال إفريقيا أربعة خطوط دفاعية كما نصت عليها المؤلفات الخاصة بهذا المجال. بل كان لها طابعها الخاص بحيث تجاوبت مع واقعها و محيطها. بما أن عنصر الماء غير متوفر بكمية كبيرة في كل أنحاء المغرب القديم، فلم يحفر بطبيعة الحال خندقا مملوءا بالماء يحيط بكل المنشآت العسكرية، و إنما اختير لها مواقع مرتفعة ليشكل هذا الارتفاع حاجزا إضافيا، أو في بعض الحالات قد يكون مجرى الواد هو الذي يؤدي دور الخندق، الشيء الذي نلاحظه في كل من حيدرة و قصر عثمان لكن معظم المنشآت الدفاعية بشمال إفريقيا لم تحظ بهذه الخاصية.

و لكي تكون بعض العمائر العسكرية أكثر مناعة، فقد بني لها أسوار منيعة تتولى الواحدة بعد الأخرى. فالمخططات لكل من بغاي و تيفاش و عين جلولة تظهر ثلاثة خطوط دفاعية متكونة من ثلاثة أسوار: السور الأول يحيط بكل الحصن البيزنطي و تتوزع من خلاله أبراج متنوعة الشكل. و في إحدى جهات الحصن خصص حيز يشكل قلعة منيعة و التي تمثل الخط الدفاعي الثاني، و في حيزها يوجد معقل يلجأ إليه الجند كآخر حامية و هو مبني،

سواء في بغاي سواء أو في عين جلولة، على شكل حصن صغير ليكون الخط الدفاعي الثالث، به أبراج تساهم على حمايته .

شيدت الأسوار الدفاعية بالحجارة الكبيرة المصقولة الموجودة و المترامية في كل أنحاء المدن الرومانية القديمة، فاحتوت هذه الأسوار على عناصر معمارية أخذت من المعالم المهجورة ليشكل بها السور المتكون من صفين من الحجارة، و إذا كان البناء يتقن في بناء الجهة السفلى للسور كونها أكثر عرضة لهجمات العدو، فإن الجهة العليا لم تحظ بنفس العناية. و انتهج البناء نفس المنهج فيما يخص الجهة الخارجية للسور الذي تم بناؤه بكل إتقان خاصة في اختيار مواد البناء و التقنية المستعملة، بينما أهمل الجانب الجمالي و الفني للجهة الداخلية للسور و يتطابق السور الدفاعي مع طبوغرافية الموقع الذي بني فوقه، و يرسم أشكالا مختلفة منها المنتظمة و منها الغير منتظمة. و احترمت الأسس في إنشائها التي تتمثل في صفين من الحجارة تربطهما طبقة من الدبش، و معدل سمك الجدران هو متران. لكن في بعض الحالات لم يتجاوز سمك الجدار المتر الواحد و لعل أحسن مثال هو السور للحصن البيزنطي لمدينة تيقزيرت حيث قدر سمك الجدار ب 0,80 م، و ينص ديهل بأن سمك الأسوار يتراوح ما بين 2,30 م إلى 2,70م.يمكن الوصول إلى ممشى الحراسة سواء بواسطة سلم متكون من بلاطات يكون في ركن الحصن (أنظر الصورة رقم 5)، أو من خلال الأبراج. يكون ممشى الحراسة مغطى بقبو حتى يحتمي الجند من سهام العدو، و يتموضع في بعض المعالم على سلسلة من العقود للتخفيف من ثقل المبنى بحيث تطبق هذه التقنية في البناء عندما لا يمتاز المبنى بأسوار سميكة، و هذا ما لوحظ في كل من مداوروش و حيدرة

تتعدد أشكال الأبراج، و الميزة الأساسية تتجلى في أنها بارزة و تتقدم الحصن، يتراوح معدل محيطها من 7 م إلى 10 م، و هي التي تعلو كل جهات الحصن ليصل الارتفاع حتى 17 م في قلعة تبسة، و يصل معدل سمكها إلى 1,60 م.

يوجد على مستوى الأرض باب ضيق يفتح ممر إلى البرج و ليس من الضروري أنه يتصل من الداخل بالطابق الأول. فلكل مبنى خصوصياته، ففي تبسة و حيدرة يتم الالتحاق بالطابق الأول بواسطة سلالم مبنية في نقاط مختلفة من الحصن و التي تحملها قناطر أو مبنية على قاعدة من الحجارة الكبيرة، أو من خلال سلالم مبنية بداخل البرج و لدينا أمثلة على ذلك في مدينتي مداوروش و تيمقاد.وإن تعذر بناء مصعد و حتى تكون مختلف طوابق البرج مستقلة الواحدة عن الأخرى، ليصبح من حيث المنظور الدفاعي آخر معقل للجند إن وقع المبنى في يد الغزاة، يلجأ للوصول إلى الطوابق العلوية إلى سلالم متنقلة من الخشب .

و كانت الأبراج متقاربة الواحدة بجانب الأخرى لتغطي كل المحيط الخارجي للمعسكر، سقفت بقبو أو ببلاطات موضوعة على ركائز بارزة أو سقفية من الخشب ، أو يغطى البرج بواسطة سقف منحن يوضع على ركائز من الخشب أو من الحجارة أو من الآجر، و يغطى السقف بصفوف من القرميد، كما يعلو هذا الطابق ممرا مكشوفا، أسواره مزودة بشرفات يقوم الجند بدورياتهم و لهم نظرة واسعة حول المنطقة، مستترين خلف الشرفات عند الضرورة .

حظيت الأبواب بعناية كبيرة لحساسيتها في النظام الدفاعي، فهي بدون شك نقطة الضعف الذي يرتكز عليه العدو في مهاجمة الحصن العسكري، و على هذا الأساس طبق عليها نظام

دفاعي يؤمنها و يؤمن المبنى بأكمله، فضيقت مداخلها التي تشرف عليها الأبراج يستحسن بأن يكون في العمارة الدفاعية باب واحد حتى تسهل مراقبة كل حركة، و أحيانا تعددت الأبواب حسب ضخامة و نوعية المبنى. احتوت الحصون الصغيرة على باب واحد بينما تنوعت في المدن المحصنة و المراكز العسكرية و القلاع المحصنة، و اختلفت سبل حمايتها، فمنها من جعلت في واجهة البرج، و منها من يشرف عليها برجين ، و منها التي لديها حاجزان: الأول في الجهة الخارجية للمبنى، و الثاني في الجهة الداخلية. و منها من يرسم مداخلها بمنعرج يقابله باب آخر ضيق كالذي يوجد في قلعة بلزمة.

و من هنا نلاحظ أنه لم تطبق كل أحكام العمارة الدفاعية التي جاء بها بروكوب و النابعة من وصايا الإمبراطور جوستينيانوس. فلم يعثر في كل هذه العمائر على مآثر الخندق المعبأ بالماء و الذي يرمز للخط الدفاعي الأول. كما لم يعثر على الخط الدفاعي الثاني و المشخص في السور الأمامي، و هذه الأوصاف وجدت في الحصينات الرسمية بالمشرق. و رغم هذا النقص في التعزيزات الدفاعية الإفريقية إلا أنه عوضت بأسس أخرى لتستغل مورفولوجية المنطقة بالوسيلة المثلى لتضمن الحماية و الدفاع عن المكان و مراقبة المنطقة على نطاق واسع. كما كان للمواقع الموروثة من الفترة الرومانية و الموجودة في النقاط الحساسة لخطوط الليمس دور كبير في إعادة تشغيلها بواسطة الفرق العسكرية المتشكلة من القوات الحدودية.و أخيرا، من الأساسيات بأن يكون عنصر الماء موجود بداخل المنشآت العسكرية حتى لا يتخذ منه العدو سلاحا حربيا ضد الجند المرابطين بداخل المعسكر. و على هذا

الأساس شغلت قلعة تيمقاد موقعا به منبع مائي هام هيئ في الفترة الرومانية في إطار مجمع

ديني أعيد توظيفه في الفترة البيزنطية لأغراض أخرى.

استعملت المجاري المائية التي تمر بالقرب من المبنى العسكري كالواد المحاذي لموقع حيدرة، و إن افتقرت المنطقة لذلك، فتحفر بطبيعة الحال بئر تزود الجند بالماء كالتي وجدت بالقلعة البيزنطية بتبسة، أو يهيئ صهريج يستقطب مياه الأمطار الذي عثر عليه في قليع زانا.